بيرم بين «زجالى» عصره

بقلم: فؤاد قاعود

إذا نحيت جانبى، المشكلة التى لم أجد لها حلاً فى حياتى، وهى التفريق بين الشعر المكتوب بالعربية المصرية وما يسمى بـ... «الزجل».. وهو الصفة التى جاءت فى عنوان هذه الورقة «العنوان اقترحته مسئولة فاضلة عن هذا المهرجان» فإننى أبادر إلى القول، بأن مكانة محمود بيرم التونسى بين زملائه من معاصريه.. هى بدون أدنى شك.. مكانة الشمس، بين الكواكب التى تدور حولها.

لقد سبقه فى هذا الفن عمالقة، من أمثال إمام العبد، ومحمود رمزى نظيم، وعاصره فطاحل، من أمثال بديع خيرى، وسعيد عبده، وغيرهما.. ولكنه ظل أعلى قامة من الجميع.

لقد كان بيرم شاعراً لمرحلته ولمراحل أخرى، جاءت بعده، مثلما كان مواطنه سيد درويش، فى مجال الموسيقى.

لست مجبراً على تقديم مقارنات، لنماذج من كتابات الآخرين، وأخرى لبيرم فى هذه الورقة الموجزة، ومن يريد أن يفعل ذلك فليتفضل.. أما أنا فيكفينى القول.. بأننى لم أصدر أحكامى عن جهل بأعمال من ذكرت أسماءهم.

ولا أريد أيضاً لهذه الورقة، أن تتصدرها عناصر الموضوع، ثم تمضى فى سرد أكاديمى.. فأنا معادٍ لهذه الطريقة.. كما أننى كما يعلم الجميع.. رجل.. لم يتعلم أبداً!

هناك شيء آخر.. لقد كان عبدالله النديم هو الرائد الأول.. ولكنى أجسر على القول، بأن القيمة السياسية الكبرى، التى مثلها النديم، ودوره البطولى فى الثورة العرابية، هما العاملان اللذان صنعا، تلك المهابة التى استحقها عن جدارة فى نفوسنا.. ولكننا إذا ما ووجهنا بمقارنة بين شعر الرجلين، فأنا فى هذه الحالة.. وبراحة ضمير.. أضع بيرم بوصفه شاعراً.. فى مكانة أعلى.

ولابد لى لكى أدلل على هذا الحكم، أن أتطرق لقضية هامة، تتعلق بطبيعة الفن.. لنسأل أنفسنا.

ما هى أهم خصائص الشعر الجيد؟

للإجابة على هذا السؤال أقول:

إن أهم هذه الخصائص، هى المتعة الساحرة، التى يمنحها الشعر الجيد لروحنا.. وأنا لا أستطيع وصف طبيعة هذه المتعة بالكلمات.. كما أن الدراسات العويصة لعلم الجمال، لم تتوصل لتوصيف قاطع، يحدد طبيعة هذه المتعة.. ومع ذلك فإن هذه المتعة المجهولة الكنه، حقيقة لا تخطئها الروح فى الشعر الجميل.

إن أكثر أعمال بيرم من ذلك النوع اراقى.. إنه يخرج من قلب الشاعر كالسهام المجنحة، ليرشق فى قلوب المتلقين، دون أدنى انحراف.

يقول فى قصيدة عن الغربة فى فرنسا:

قضيت حياتى غريب فى أرض فرنسا

يا ويله من يدخل فرنسا غريب

لقيت كلام القوم شهد مكرر

لكن عيونهم تشتعل لهاليب

مليـون أوتيل مـفـتـوح يتـاوى جتتنا

وخـــدامـــيـنهـــا كل واحـــد ديب

يامـا انجليـزى اتشـال بـدفـتـر شـيكـاته

ويامـــا هندى رجـــعـــوه سنديب

من راح لهم غـدوه بنص اليـــومـيـــه

بشـــربه ســـايطه والفـــروته زبيب

كـام مـغـربى مـسلم نطق بالشـهـادة

ويامـا جـيـرمـان صلبـوا تصليب

أتعس عـــبـــاد الله هناك الأجـــانب

أقـولـهـا والمولى عليـا حـسـيب!!

وفى قـصـيـدة أخرى، بالغة الروعـة بعنوان «عزرائيل» وهى رؤية شعرية عـمـيـقـة ومـؤثرة، تقف بجـدارة على قدم المساواة، بين أعظم قـصـائد الشـعـر العالمى.. حيث يتخيل الشاعر عزرائيل وقد أتاه فى منامه، على هيئة خواجة، يحمل ملامح مشتركة من كل دول أوروبا، التى سيطرت جاليات منها على مقـدرات مصـر، فى ذلك الوقت.. فقـد كـان هؤلاء الأجـانب، هـم أصـحـاب البنوك، وسماسرة البورصة ومالكو أهم المصانع.

لقد نسوا وهم رعايا دول أوروبية مختلفة، كل تناقضاتهم، وتحالفوا على استغـلالنا، والتـحكم فى اقـتـصـادنا وحـيـاتنا.. وفى القـصـيـدة جـو سحـرى سريالى، أبدعته عبقرية بيرم الشعرية.. فقـد كان بيرم فى هذا النص، سابقاً بشكل مستقبلى، كل نماذج الإبداع المصرى الحديث، بأكثر من نصف قرن:

ف النوم رأيت عزرائيل

مركيز أوروباوى

ضوفره انجليزى طويل

معووج وسبعاوى

وناب يشيل ألف فيل

أزرق فرنساوى

والفم يبلع قبيل

فى مجره نمساوى!

* * *

عليه قميص من سواد

فاشيست طليانى

وجنبه منجم حصاد

من صلب جرمانى

وف خرجه زواده وزاد

من بمب بريطانى

ومعاه خناجر بولاد[1]

من دقه يونانى!

* * *

(١) بولاد .. فولاذ.

قـــــريت عـليـــــه الســـــلام

قـــــــام رد بـلـغـــــــارى

طـــلـــبـــت مـــنـــه الـــكـــلام

كـلـمـنـى بـافـــــــــارى

شـــــاورت بـاليـــــد قـــــام

شـــــاورلـى هـنـغـــــــارى

صـــــحـــــــيـت أنـا م المـنـام

أقـــــــرض ف أظـفـــــــارى ! !

لقد استيقظ من غفوته، مذهولاً قارضاً أظفاره، فى قلق ورعب، حيث تجسدت له السيطرة الأجنبية، المتعددة الجنسيات، جامعة كل مفردات قوتها الجبارة، فى فرد واحد.. ولن يكون هذا الفرد سوى «عزرائيل» نفسه، حيث من المؤكد، أننا سنلقى حتفنا على يديه.

هذا هو الشعر الخالد الذى لن يموت، لا لمضمونه، ولكن لما هو أهم، وهو الإبداع الذى يقدم فى طيه المضمون.. إنه سحر الشعر الخالد الباقى من عصور البشرية السحيقة، حيث كان السحر، واقعاً ملموساً فى الحياة البدائية للإنسانية، كما كشف لنا علم الأنثروبولجى.. لقد خرج الفن من السحر، ثم حل محله، فبقيت آثار منه فيه.. وتظهر هذه الآثار فى أعمال المبدعين، بدرجات متفاوتة ولكنها تتجلى بقوة فى أعمال العباقرة.. هذه هى المتعة، التى لا تخطئها الروح فى شعر العظماء.

هناك ميزة أخرى، يتميز بها ذلك الشعر الملهم.. هى أنه شعر لا يموت بموت المناسبة التى قيل فيها.. وحتى وإن كان المضمون الذى يحمله ذلك الشعر، لم يعد مما يهتم به الناس الآن.. إلا أن السحر، الذى أودعته العبقرية

فيه أثناء خلقه، يظل يانعاً دانى القطوف!

هناك أمثلة كثيرة، فى إيداعات بيرم: تحمل، هذه الخاصية.

من هذه الأمثلة، مقطوعة بالغة القوة، كتبها حين أراد بعض الرادكاليين الليبراليين المصريين فى العشرينيات فى هذا القرن، الدعوة إلى إقامة جمعية تعاونية أهلية، تنشأ وتدير جمعيات تعاونية استهلاكية، لحمية الجماهير من الجشع والاستغلال، مما أثار السفارة ابريطانية، الحاكمة لمصر فى ذلك الوقت، والتى قالت إن نظام الجمعيات التعاونية، هو نظام اشتراكى، سيفضى بالضرورة إلى الشيوعية الملحدة، فى بلد الأزهر الشريف!.

وبإيمائة من الإنجليز قام.. للأسف الشديد.. أحد رجل الأزهر الموالين للاحتلال ليفتى بأن الجمعية التعاونية الاستهلاكية، هى كفر بالله، ومروق عن الدين!

وقبل أن أختار لكم بعضاً من الكلام المعجز، الذى جادت به عبقرية بيرم، فى هذا الأمر، أريد أن أوضح شيئاً.. يعرف أبناء هذا الجيل، أن الجمعيات التعاونية الاستهلاكية.. نشأت.. ونجحت.. وخدمت.. ثم شاخت وفسدت.. أى أنها كظاهرة أتمت دورتها الجدلية كاملة.. وعلى الرغم من ذلك، ظل شعر بيرم بعد انتهاء المناسبة، وبعد اكتمال دوره الظاهر.. قوياً ومبهراً!.

يقول بيرم، مخاطباً ذلك المعمم، الذى انبرى مدافعاً، عن وجهة نظر الاحتلال، مبيناً له الشريعة الإسلامية الصحيحة، التى يتناساها:

لا ف الجوامع رأيت مثلك ولا ف الدير
عالم ومسلم وبتعارض ف فعل الخير
مادام فضيلتك بتاكل كستليته وطير
خلى الدريس والدره والفجل للخرفان!

* * *

طب وانت مالك بتتفلحس وتتفلسف

وتخش ف اللى ما هو لك ليه وتتكشف

هيه نهار البلد دى لما تتبلشف

ح يجردوك م القاووق والجبه والقفطان !

* * *

لا والتلامه بتستشهد لنا بالدين

إنه أمر يبقى نص المسلمين جعانين

إن كنت فاكر شريعة العدل عن لينين

أنظر شريعة نبينا نازلة ف القرآن !

* * *

كان النبى والصحابة يقعدوا ع الأرض

ما فيش لهم حد لا بالطول ولا بالعرض

متجمعين.. والغنى عند الفقير له فرض

والكل للكل إلا ف الحرام إخوان !

* * *

ولما تتوزع الحنطة وصاع التمر

كان اللى ياخده بلال قد اللى ياخده عمرو

والأمر لله لوحده.. هوه صاحب الأمر

ينزل سماوى لا ديكريتو ولا فرمان !

ويقول أيضاً، عن أعضاء المجالس النيابية فى عهده، حيث يقدم بيرم هنا نموذجاً حيّاً، ما زلنا نراه بيننا بعد مرور عقود كثيرة على رصده له:

ف البرلمان اللى فات عدينا كام سمسار
السمسرة صنعه أصلى.. والنيابه ستار
سمسار معاه الحصانه.. والحصانة جدار
يستر جرايم تدخل مرتكبها النار!

* * *

سمسار ف جيبه قضايا الناس ف أجنده
عن عمده ينشال وغيره يتعمل عمده
ومهندس الرى يترحل لأوغنده
وإذن تصدير يصدر ألف طن خضار!

* * *

سمسار بهيبه وكرامه يدخل الوزارات
يقفوا له صفين من هوات ومن باشوات
ويعين ابنه الجهول فى أرفع الدرجات
ولا تقولش الحكومة.. موظفينها كتار!!

* * *

وفى عمل آخر بعنوان «المنبوذين» حين اشتهرت حملة غاندى فى الدفاع عن منبوذى الهند، يقول فيه إن المنبوذين المصريين أكثر بؤساً.. ثم يدير بيرم

أمام عيوننا شريطاً سينمائيّاً، نرى فيه مشاهد متتابعة لقوافل التعساء، من الفئات المصرية فى ذلك الزمن، والناتجة عن التخريب غير الإنسانى، للمجتمع المصرى، من قبل الاستعمار الإنجليزى:

يا منبوذين الهند كفوا دموعكم
دى مصر فيها المنبوذين ملايين
من منبوذين حافيين يلموا سبارس
ومنبوذين ماسحين جزم دايرين
ومنبوذين شبان معاهم شهايد
حرم عليهم يدخلوا الدواوين
ومنبوذين.. نسوان.. وظابط مباحث
داير وراهم من كمين لكمين
ومنبوذين ف البيت عشاهم فلافل
فى العيد.. وأيام السنة جايعين
يا غاندى يكفى صوم تعالى بلدنا
شوف اللى فيها من زمان صايمين
بلد دهبها انشال ودهبان حالها
ولسه فيها الإنجليز قاعدين!!

* * *

وعن البيروقراطية، الباقية فى مصر منذ آلاف السنين.. إلى الآن.. يستعرض بيرم أضابير البيروقراطية، المركونة فى الأراشيف، منذ نصف قرن، دون بت:

فى دى الدوسيهات أشغالك وأشغالى
بقى لها خمسين سنة فى وضعها الحالى
فيها معاش أرمله قالت يابو عيالى
وعرض حال شاب بائس م العمل خالى
ومشكلة وقف فاتها خورشيد الوالى
حاططها صاحبك وبيقول لك ونا مالى
دا حسنى بيه المدير العام باعتهالى
ولسه عايزه لها إمضة مستشار عالى
آدى النظام اللى خارب كل بيت مالى
ومركب الفقر أمثالك وأمثالى!!

ولا ينسى بيرم العظيم، أثناء المسح الذى يقوم به، لسلبيات المجتمع المصرى، أن يبدع قصيدة عن الصحافة.. وعلى الرغم من أنه أحد النجوم المتلألئة فى سمائها، لكنه لم يعفها من العقاب على سلبياتها، وهو يشير بفهم ملهم، إلى الأصل السماوى للصحافة، حيث إن لله عز وجل هو 'لذى أصدر أول الصحف.. ويتعجب بيرم من تدهورها، بالرغم من نشأتها السامية!:

بياضها الأبيض الناصع ف طهر السيده العذرا
وأول من بدأ بيها إله العزه والقدره

ومن سابع سما نزلت ... لنا نشره ورا نشره
فسبحان الذي أوصى ... وسبحان الذي أسرى!

* * *

شوف النازله من العالي ... بقت عاليها سافلها
لصوص السمسره والمال ... بأموالها تشغلها
ويوم القرش يحييها ... ويوم القرش يقتلها
ولما تتوب وتتعفف ... تروح تعلن عن الخمره!

* * *

ولابد أن أذكر هنا، أن علاقة بيرم بالصحافة انتهت نهاية مأساوية.. حيث طرد من الجريدة اليومية القومية الكبرى، التى كان يعمل بها، وقام بطرده كاتب أغانى متوسط القيمة، يعمل رئيساً للتحرير.. ولم يعترض أحد!!

ولا يدهشنا هذا الأمر.. فى مجتمع جاحد.. ومعادٍ.. لكل ما هو أصيل وجميل.

ولكن حب بيرم الذى لا يحد لوطنه، لم ينقص ذرة واحدة إزاء العوائق التى ألقيت فى طريقه.. ويظل يقوم بدوره العظيم فى تغذية الوجدان المصرى، بالإبداع الشعرى البالغ الرقى، والذى يقوم فى نفس الوقت، بدور تنويرى باهر.

ويلخص بيرم فى موال مؤلم، وفى وقت مبكر، العلاقة الحقيقية.. بين الغرب وإسرائيل.. دون أوهام.

فيقول مخاطباً إسرائيل، بلسان الاستعمار الغربى، الذى زرعها، والذى سيحمى أفعالها الإجرامية، على المستوى الدولى:

وقـالوا يا إسـرائيل ملكك مـا لهش حـدود
والمسلمـين اللى حـولك من جيـرانك.. دود
أمـا السـلاح تحت أمـرك بالبـلاش مـوجـود
لو تدبحى المسلمـين واحـد ورا التـانى
مـين اللى يحكم عليكى والأحبـة شـهـود!

* * *

وعلى طريق التنوير، والتثقيف السياسى، يقدم بيرم عملاً عن رأس المال الجبان، الذى يرتعش من أية اضطرابات بسيطة، متوهماً، أنها الضربة القاتلة التى ستنزل على أم رأسه، فى أية لحظة!.. ومن نوعية المخافة التى اختارها بيرم للتدليل على ذلك الجبن.. ندرك، دون أن يخبرنا الشاعر صراحة، بأن رأس المال لا يحس الأمان بسبب شعوره الداخلى بأنه لص!:

جـبـان يفـزع ويتـخـبى إذا هب النسـيم هبـه
ولما تعـصف الأريـاح يخلي حـبـتـه قـبـه

* * *

ولما يقـولوا دي مظاهره بريئـة من بنات طاهره
بنوك القطر والقـاهرة يحطوا القـفل والضـبـه!

* * *

ولو عـيل بزمـاره نفخ في أيهـا حـاره
يقـول الليله فـيـه غـاره ونا اللي ح آكل الضـربـه!

* * *

خطيب يخطب ف شيء تاني ف موضوع مصري سوداني
تقول البورصة آه يانى ويا ويلي من الخطبة

* * *

تجاوبها برص تانيه ولو في آخر الدنيا
وتتراذل بريطانيا وأمريكا وأوروبا !!

* * *

وفى عمله الفذ.. «توت عنخ آمون».. يلطم بيرم المصريين بدافع الحب الجارف، كما تلطم الأم ولدها، لكى تدفع به إلى الأمام.. و«توت عنخ آمون» قصيدة، قد لا يوافق على نشرها.. رؤساء تحرير الصحف الحاليون.. بالرغم من مرور أكثر من ستين سنة على كتابتها، وذلك لأن كلام بيرم فى هذه القصيدة، سيجيء على «الدمل» كما يقول المصريون، فى فصاحة وبلاغة نادرتين.

يقول بيرم عن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون مخاطباً فرعون:

فى عهد ما كتفوك ف القبر يا فرعون
داست بلادك دول من كل شكل ولون
وخلصوا منا تار موسى وتار هارون
وبعد جور الزمان واللى جارى فينا
ظهرت لما بقى لك ف المنامه قرون!

* * *

فى مصر كنت الملك لك جيش ولك حاميه
وف دوله غير دولتك.. ما تتعمل موميا

وأمــه غــيــر أمــتك.. مــا تزرع البــاميــه
ولما خــشــوا عليك المقــبــره يلاقــوك
نايم مــفــتح.. ولا كن فى بلد عــمــيــا !

* * *

وهكذا يجىء إبداع بيرم المتميز، وهو يحمل دائماً مضموناً وطنيّاً وثوريّاً أصيلاً.. ولكن المضمون الوطنى، لا يكفى لخلود الشعر، كما لم يشفع للنديم دوره المبهر فى الثورة العرابية، فى جعله أكبر الشعراء.

لقد كان مضامين شعر بيرم، كلها تصب فى تيار حركة التحرير والتنوير، التى حمل مشاعلها، أفذاذ من أبناء الوطن من نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين.. وكان بيرم، فارس الحلبة لحقبة كبيرة، من عمر هذا الوطن.

ونعلم جميعاً أنه حكم عليه بالنفى.. ولولا أسباب بيروقراطية، فى مجال العلاقات الدولية وقت ذاك.. لتمت تصفيته الجسدية دون إمهال.

ولا يقول أحد، إن السبب فى هذا النفى، هو مجرد المضمون السياسى للشعر، الذى هجا به بيرم العائلة امالكة، فلو جاء هذا الهجاء.. فى شعر ركيك وباهت.. لما اهتم به أحد.. ولما اهتزت له الدولة على أعلى مستوياتها.. ولما تزلزلت بفعله قوائم العرش فى مصر.

لم يكن بيرم متضرراً فى مواجهته فقط لأعداء الوطن، من الإنجليز والسرايا.. فقد كان له بجانب ذلك، عداء أرباع المواهب، لذين يفوقون الهاموش عدداً فى كل العصور، وفى كل المجالات، والذين يفرضون غوغائيتهم فى كل محفل، جاهدين بكل ما لديهم من إحساس بالنقص والدونية، فى محاولات دنيئة، للتقليل من قيمة الموهوبين، ولعرقلة بروزهم بكل الوسائل

المنحطة، وهى الضريبة التى فرضها الله على عباده، الذين منحهم هبة التفوق.

يقول سيجموند فرويد.. بلسان حال هؤلاء الحاقدين، عندما يظهر بينهم شخص متفوق:

«نحن نعلم أنه متفوق.. ولكن.. فليأخذ تفوقه معه ويذهب إلى الجحيم»!.

وقد عانى بيرم أكبر المعاناة، من أشكال النكران والجحود التى حاصرته.. وقد كان ذلك مفهوماً جداً، بالنسبة لشخص كبير.. يتمتع بموهبة كبيرة.. لم يتحملها الكثيرون.

ويجرؤ أحد كبار المغتاظين من موهبة بيرم، على الدعوة لتنصيب شخص باهت الموهبة، أميراً على الزجالين.. يحدث ذلك، فى ذروة عنفوان موهبة بيرم المتقدة، مما ينتج عنه، ذلك البيت.. الشديد المرارة.. الذى يقول فيه:

ويبـــــقى ابن أم بثـــــينة أمـــير.. ونا.. م الرعـــيه!

ولبيرم أعمال أخرى مجيدة، لم يتسع الوقت لعرضها، وهى مقاماته الفريدة، وقضية الاجتماعية المعجزة، والتى لم يأت أحد من بعده بنظير لها.

تبقى قصيدة، لابد من اقتحامها، لكثرة ما تحملت من مغالطات ومن أحكام جائرة، وهى التفضيل غير العادل، للشعر المكتوب بالفصحى الرسمى، على الآخر المكتوب بالعربية المصرية.

ومن حق أنصار الأخير، أن يقولوا بأن شعر العربية المصرية، هو الأكثر قيمة، لأنه يكتب باللغة الحية الفاعلة فى حياتنا، والسائرة نحو تطور دائم.

أما أنا فأقول: إن الشعر هو الشعر.. أيا كانت اللغة أو اللهجة التى قيل بها.. نحن لا نستطيع أن نفضل قصيدة فرنسية على أخرى إيطالية أو إنجليزية بسبب اللغة.. إن الفيصل فى تفضيل شعر على آخر، هو القيمة التى عليها

موهبة الشاعر، وهو القدر من السحر الجميل، الذى منحته لروحنا القصيدة، مهما كانت اللغة المكتوبة بها.

ولذلك فأنا لا أرى أى خطأ فى ن أقارن بين أعمال بيرم المصرى، وبين أعمال تشوسر الإنجليزى أو دانتى الإيطالى أو ابن الرومى العربى

إن المفاضلة بين بيرم، وبين ما يسمون بـ «زجالى» عصره، ليست إلا حصراً غير مبرر، فى ركن واحد من أركان المكان الأربعة.

لهذا.. فأنا أرى أن المفاضلة يجب أن تكون بين بيرم، وبين كل من عاصروه من شعراء، بما فيهم شعراء اللغة الرسمية.

إن العربية المصرية، التى يكتب بها بيرم وشعراء آخرون ليست لغة أجنبية عن العربية.. ولكنها لهجة فقط.. لهجة تحمل بعض الاختلافات الطفيفة.. وأزعم أنها أقرب اللهجات إلى اللغة الأم، وأن الفارق بينهما ليس إلا فارقاً فى النطق فقط.. إن المترادفات وطريقة بناء الصور الشعرية وبحور النظم عند شعراء العربية المصرية.. هى عربية.. عربية.

كنت قد قلت فيما سبق، إننى لن أعقد مقارنات بين نماذج لبيرم ونماذج لآخرين.. ولكنى فى نهاية هذه الدراسة، وجدت إغراءً كبيراً فى أن أرجع فى كلامى لمرة واحدة فقط.. والذى جعل ذلك الإغراء شديداً، هو أننى سأقارن بين عملين شعريين فى موضوع واحد.. أولهما.. لأكبر شعراء الفصحى أحمد شوقى.. والآخر لبيرم التونسى.. وسأحاول أن أنتقى بما بدا لى، أنه أهم الأبيات والمقاطعات، التى جاءت فى القصيدتين.

يقول شوقى فى الزعيم الهندى الأشهر المهاتما غاندى:

بنى مصر ارفعوا العار

وحيوا بطل الهند

وأدوا واجـــبـــاً واقـــضـــوا

حـــقـــوق الـعـلـم الـفـــرد

أخـــوكـم فـى المـقـــاســـاة

وعـــــــرك المـوقـف الـنـكـد

وفـى الـتـــضـــحـــيـــة الكبـــرى

وفـى المـطـلـب والجـــهـــد

وفـى الجـــــــرح وفـى الـدمـع

وفـى الـنـفـس مـن المـهـــد

وفـــى الـــرحـــلـــة لـــلـــحـــق

وفـى مـــــرحـلـة الـوفـــد

قـــفـــوا حـــيـــوه عن قـــرب

عـلـى الـفـلـك ومـن بـعـــد

وغـطـوا الـبـــــر بـالآس

وغـطـوا الـبـــحـــر بـالـورد

* * *

ســـــلام الـنـيـل يـا غـــانـدى

وهـــذا الـــزهـــر مـــن عـــنـــدى

وإجـــــــلال مـــن الأهـــرا..

م.. والـكـرنـك والـبـــــردى

ومن مشيخة الوادى

ومن أشبالـه المرد

سلام حالب الشاة

سلام غازل البرد

ومن صد عن الملح

ولم يقبل على الشهد

سلام كلما صلي....

ت... عرياناً وفى اللبد

وفى زاوية السجن

وفى سلسلة القيد

ويقول بيرم:

السلام لك السلامه — من هنا ليوم القيامه

ياللي أظهرت الكرامة — بعد عهد المرسلين!

ياللي من لعبك بمغزل — تطلع البورصات وتنزل

فوق دماغ.. لندن وتغزل — لانكشير الغزالين!

* * *

فيلسوف ما يخيبش قولك — كل فلسفتك في نولك

والتلاميذ اللي حولك — بالمكاكيك شغالين!

* * *

لنجليز عايشين ف لذه عندهم أسطول وعزه
وأنت تضربهم بمعزه سودا بنت أربع سنين

* * *

من هنا تيجي المقالب واللي مغلوب يبقى غالب
واللي مطلوب يبقى طالب والهزيل ياكل السمين!

* * *

لنجليز تاخد ما تدي بالحفان من كل هندي
واتنبح صوتك يا غاندي ما التقيتش المنصفين!

* * *

قول مادام الحق ضايع والغرض بيع البضايع
الحرام ساتر وسايع ولا نمشي عريانين!

* * *

يا زعيم الهند صومك حبب العالم في قومك
وانتهت حجة خصومك إللي باتوا ملبوخين!

* * *

كلهم واقعين في حيره يعقدوا جلسات كبيره
فوق موائد مستديره يعني لسه محلقين!

* * *

يغضب الحاكم لنصحك يحبسك ويعود يصالحك
وأنت تستعجب وتضحك ع الجبابرة القحطانين!

يحسبوك طالب جرايه ترعبك هزة عصايه
يلتقوك يا غاندي آيه في الجهاد صايم سجين!

* * *

كام زعيم ف الدنيا مثلك يرضى ياكل زي أكلك
ولا يلبس زي شكلك كلهم متحفلطين!!

* * *

فى كلمة سريعة عن الفرق بين العملين أقول:

إذا تجاوزنا عن الشكلية التقليدية، التى تلتصق بالشعر الرسمى العامودى كقدر.. وبين السهل الممتنع، الملازم لجمال العربية المصرية.

فإن شوقياً ذكر السجن ومرحلة الوفد ومعركة الملح والمعاناة، فى حياة الزعيم الهندى، بشكل عام وسريع..

أما بيرم فعلاوة على الشعر البالغ الجمال، فقد قدم تفاصيل كثيرة واعية، تؤكد معرفته الوثيقة بحركة «ساتيا جراها» التى تزعمها غاندى.. كما دل عمله، على متابعة مسئولة، لأحداث حركة النضال الهندى، ضد الاستعمار البريطانى.. وهذا ليس غريباً على شاعر مثل بيرم، تركزت كل همومه الحياتية، فى الدفاع عن قضية تحرير شعبه، من الاحتلال والتخلف.

ولا ينهى شاعر الشعب قصيدته الرائعة، دون أن يقتنص فرصة المقارنة بين.. غاندى.. الزعيم الناسك.. الذى ضرب المثل فى الزهد وإنكار الذات.. وبين زعمائنا الباشوات.. فهم كلهم.. «متحفلطين!» وهى مقارنة لن تخطر بالبطع على بال.. شوقى بك.. ربيب السراى.. الذى قال عن نفسه:

أأخون إسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب إسماعيلا!!

ويقول شوقى قولته المشهورة: «إننى أخشى على العربية من بيرم!.. وأنا أرى أنه لم يخش على العربية.. بل خشى على نفسه!».

إذا كنت قد أعلنت فيما سبق، فى هذه الوريقات المتواضعة، أننى لا أعلى من شأن شعر على آخر، بسبب اختلاف اللغة أو اللهجة، ولكنى أفعل ذلك فقط، بسبب المتعة الروحية، التى منحها لنا الشعر، بما هو كذلك.

فإننى أقول:

أنا لا أعرف، مقدار ما لرأيى من قيمة عند البعض، كبيرة أو متواضعة ولكنى أعلنه مرتكزاً على قاعدة الصدق.. والرأى عندى بأمانة، هو أنه من الظلم مقارنة بيرم بزجالى عصره فقط.. ويجب مقارنته بكل من كتب الشعر فى مرحلته.. ولن يكون خاسراً.

وعلى هذا الأساس.. فأنا أعلن فى النهاية.. وبقوة.. أن بيرم التونسى هو أكبر الشعراء، الذين ظهروا فى ذلك النصف الأول من القرن العشرين.. على أرض مصر.

■■■